

## الصغير بن يوسف بين علم التاريخ وعلم التراجم والأخبار

### Seghir Ben Youssef al-Baji: Between the Science of History and the Science of Biography

نحاول في هذه الدراسة تجديد النظر إلى مَحَمّد، بفتح الميم، بن مَحَمّد الصَّغِير بن يوسف الباجي (1697-1771) وكتابه المَشْرَع المُلْكِي في سلطنة أولاد علي تركي؛ وذلك بفهم آليات إنتاج النص التاريخي والكتابة التاريخية عند الصغير بن يوسف في إطار ما توفّر له من معرفة بالنصوص الأخرى، ومن استخدام الثقافة العربية الإسلامية، ومن استيعاب لثقافة الطبقة الوسطى، في عملية تراكم أدت إلى بروز عمل متميّز وفريد من نوعه، وإن كان يتقاطع في بعض الصفات مع مصنفات أخرى، ومع غيره من الإخباريين مشرقاً ومغرباً؛ على نحو يتيح لنا إمكان المقارنة وجدواها في الدراسات التاريخية. ومهما يكن من أمر التداخل والاختراق بين التاريخ والتراجم في المشرع الملكي، وإن لم تسلم جميع التراجم والأخبار من نقص، فإن المعلومات الواردة فيه حول الفاعلين الاجتماعيين تبرز رغبة الصغير بن يوسف في مواصلة ما قام به من سبق للإخباريين بشأن تدوين الأخبار من جهة، وتقديم المعلومات الإضافية والجديدة حول الواقع المعيش، وحول الظرفية الاقتصادية، وحول المجتمع المحلي بباجة، وفق منهجية مبتكرة ومجددة أحياناً في كتابة التاريخ والتراجم، من جهة أخرى.

**كلمات مفتاحية:** التراجم، الهيستوريوغرافية، ثقافة الطبقة الوسطى، تونس، القرن الثامن عشر.

This study offers a new perspective on Mahammad Ben Mohamed Seghir Ben Youssef al-Baji (1697-1771) and his book Al-Mashra' al-Mullki fi Sultanat Awlad Ali Turki. It does this by investigating his mechanisms in the production of the historical text and the writing of history in the context of his knowledge of other texts, the use of Arab Islamic culture, and his understanding of middle-class culture, that have accumulatively led to an exceptional and singular work. Whatever the overlap and interplay between history and biography in Mashra' al-Mulki, the information it provides on social actors shows Seghir ben Youssef's desire to continue the work of his predecessors and to provide new information on the lived reality, economic conditions, and the local community in Béja according to an innovative, and at times novel, method of history and biography writing.

**Keywords:** Biography, Historiography, Middle-Class Culture, Tunisia, 18<sup>th</sup> Century.

\* أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، جامعة منوبة، تونس.  
Professor of Modern History, College of Literature, Arts, and Humanities, Manouba University, Tunisia.

## مقدمة

انبثت شهرة مُحَمَّد بن مُحمَّد الصَّغِير بن يوسف الباجي (1697-1771) وكتابه **المشروع الملكي في سلطنة أولاد علي تربي** (1)، وانطلقت فعليًا منذ أن عمد كل من فيكتور سار Victor Serres ومحمد الأصرم إلى ترجمة هذا المصنف إلى الفرنسية في أواخر القرن التاسع عشر، فعرفنا بصاحبه وأهميته؛ بوصفه مصدرًا من المصادر التاريخية الطريفة والأساسية لمعرفة حقبة تاريخية مهمة في تاريخ تونس. ولئن امتازت الترجمة بدقتها وجودتها، كما لاحظ ذلك الباحث أحمد عبد السلام (2)، فإنها صرفت أنظار الباحثين عن النسخ المخطوطة التي لم تستقطب إلا اهتمام بعض المتخصصين؛ من أمثال أحمد عبد السلام (3)، ورواد المدرسة التاريخية التونسية - وعلى رأسهم الباحث محمد الهادي الشريف - والذين مثل لهم **المشروع الملكي** منطلقًا لوضع الدراسات الأولى حول العهد العثماني في تونس، ولتوجيه الكتابة التاريخية التونسية نحو استغلال المصادر المحليّة (4).

أما اليوم، وبعد نشر **المشروع الملكي** وتحقيقه، بفضل مجهودات الباحث أحمد الطويلي، فقد أصبح في متناول القراء والباحثين، وتبعًا لذلك أصبحت زوايا النظر إليه متعدّدة ومتنوّعة (5). فقد اختزل مصنف الصغير بن يوسف في خطابين أولهما تأكيد طرافة أسلوبه بالنسبة إلى أسلوب معاصريه، رغم خروجه عن قواعد اللغة العربية ومعاييرها، واستعماله اللغة الدارجة (العامية التونسية)، وقد انبنى على ذلك الخطاب الثاني وتأسس، وهو خطاب يقول بتواضع ثقافة الصغير بن يوسف الباجي وقلة زاده في كتابة التاريخ.

إنّ دراستنا اليوم تحاول تجاوز النظرتين اللتين أصبح يرددتهما أغلب الدارسين؛ وذلك بفهم آليات إنتاج النص التاريخي والكتابة التاريخية عند الصغير بن يوسف في إطار ما توفّر له من معرفة بالنصوص الأخرى، ومن استخدام للثقافة العربية الإسلامية، ومن استيعاب لثقافة الطبقة الوسطى، في عملية تراكم أدّت إلى بروز عمل متميّز وفريد من نوعه، وإن كان يتقاطع في بعض الصفات مع مصنّفات أخرى ومع غيره من الإخباريين مشرقًا ومغربًا، على نحو يتيح لنا إمكان المقارنة وجدواها في الدراسات التاريخية.

## التراجم والتاريخ: من الاتصال إلى الانفصال

لقد كانت الكتابة التاريخية في الحضارة العربية الإسلامية، جزءًا من أدب السيرة والمغازي والفتوح، كما ارتبطت منذ البداية بعلم الحديث والفقه والتفسير وشكلت علمًا مساعدًا لهم (6). فالسخاوي (ت. 1497) مثلًا، وهو من أكبر المدافعين عن علم التاريخ، اعتبر

1 نشر الزميل الأستاذ زهير بن يوسف مقالًا علميًا "دسمًا" حول بيوغرافية الصغير بن يوسف، ودقق اسمه ونسبته، مقارنة باسم الشهرة "الصغير بن يوسف" الذي نعتمده في هذا العمل، كما أتاح لنا فرصة مناقشة هذه المسألة في الندوة التي نظمها حول الصغير بن يوسف بياحة عام 2012، انظر: زهير بن يوسف، "رسوم الأوقاف مصدرًا بيوغرافيًا: المؤرخ محمد بن محمد الصغير بن يوسف مثالًا"، في: **دراسات في التراث المكتوب**، تنسيق فتحي الجبري (تونس: المركز الوطني لقانون الخط، 2017)، ص 115-159.

2 Mohammed Seghir Bin Youssef, "Mechra El Melki, chronique tunisienne (1705-1771) pour servir à l'histoire des quatre premiers Beys de la famille Hussainite," Victor Serres & Mohammed Lasram (trans.), *Revue Tunisienne*, vol. 1, no. 8 (1900).

علمًا أن هذه الترجمة أعيد نشرها تحت عنوان:

*Chroniques Tunisiennes de Mohamed Segheir Ben Youssef*, 2<sup>ème</sup> ed. (Tunis: édition Bouslama, 1978).

3 أحمد عبد السلام، **المؤرخون التونسيون: في القرون 17 و18 و19. رسالة في تاريخ الثقافة**، ترجمة أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي (تونس: بيت الحكمة قرطاج، 1993)، ص 246.

4 Mohammed Hedi Cherif, *Pouvoir et société dans la Tunisie de H'usayn bin 'Ali (1705-1740)*, vol. 2 (Tunis: Université de Tunis, 1984).

5 أصدر الأستاذ أحمد الطويلي، بدايةً من عام 1998 إلى عام 2009، تحقيقًا **للمشروع الملكي** في أربعة أجزاء، اعتماده على نسخة خاصة على ملكه، وقارنها بالنسخة الموجودة بدار الكتب الوطنية رقم 5265، وهي النسخة الأصلية من المشروع، انظر: الصغير بن يوسف، **المشروع الملكي في سلطنة أولاد علي تربي**، تقديم وتحقيق أحمد الطويلي (تونس: المطبعة العصرية، 1998-2009). ومع تقديرنا للمجهود الفردي للأستاذ الطويلي، فإنّ أخطاءً عديدة وردت في التحقيق، بل حتى في تاريخ وفاة الصغير بن يوسف: فقد اعتبر المحقق أنه توفي في عام 1764، في حين أنّ هناك شبه إجماع بين الدارسين على أنّ وفاته كانت عام 1771. كما نشير إلى تحقيقين لقسم من المشروع الملكي قام بهما محمد عجبنة، وتوفيق الزيراوي، انظر: محمد عجبنة، **المشروع الملكي: القسم الأول من دولة علي باشا**، شهادة الكفاءة في البحث، إشراف أحمد عبد السلام، كلية الآداب بتونس، 1972؛ توفيق الزيراوي، **المشروع الملكي: القسم الثاني من دولة علي باشا**، شهادة الكفاءة في البحث، إشراف أحمد عبد السلام، كلية الآداب بتونس، 1977.

6 على سبيل المثال، انظر: عبد العزيز الدوري، **بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب** (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1960)؛ فرانتز روزنتال، **علم التاريخ عند المسلمين**، ترجمة أحمد صالح العلي (بغداد: مكتبة المنفى، 1963)، ص 141؛ خالد زيادة، **الكاتب والسلطان: من الفقيه إلى المثقف** (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2013)، ص 17-18.

التاريخ طريقاً موصلة إلى علم الحديث وقوام الجرح والتعديل، ويبن منافعه للأحكام الشرعية<sup>(7)</sup>، فصنّف في الحديث والتاريخ والتراجم. ومن أشهر ما صنّف في هذا المجال **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**<sup>(8)</sup> و**الذيل على رفع الإصر أو بغية العلماء والرواة**<sup>(9)</sup>، وقد استدرّك في المصنفين، على شيخه ابن حجر العسقلاني (ت. 1448) ما فاته من تراجم في كتابه **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**<sup>(10)</sup>. فترجم السخاوي للعلماء والرواة والقضاة والشعراء والخلفاء والوزراء من مصر والشام واليمن والهند، وقد أثارت ترجمته - بما حوته من جرح وانتقاد لبعض المترجم لهم - انتقادات من معاصرين له.

وتواصل تصنيف كتب التراجم، وقد تنوعت وتعدّدت بتنوع مجالات المعرفة وتعددها باختلاف الأزمنة والعصور، فاستطاعت التراجم بمرور الزمن أن تحتلّ مكانة العلم أو الجنس الأدبي المستقل والمتميّز، على نحو يساهم في كتابة التاريخ من خلال ما تقدمه التراجم من معلومات. فالتراجم على اختلافها وتنوعها تعتمد في وضعها وتصنيفها على العنصر الزمني، وهو عنصر مرتبط بالتاريخ.

فعندما يُترجم لعالم أو فقيه أو أديب، انطلاقاً من تاريخ ولادته إلى وفاته، مروراً بأغلب مراحل حياته الدراسية والعلمية ووظائفه مع ذكر إنتاجه العلمي... إلخ، فإن ذلك إنما يتنزل في سياق تاريخي يرتبط بعصر المترجم والمترجم له<sup>(11)</sup>.

وغنيّ عن البيان أن الارتباط بين التراجم وعلم التاريخ ظلّ ارتباطاً متيناً في التراث العربي الإسلامي، لكن المنعرج - بإجماع الدارسين - حصل مع عبد الرحمن بن خلدون الذي كان أول من دعا إلى استقلال علم التاريخ عن بقية العلوم الشرعية. غير أن الدعوة إلى استقلال علم التاريخ وظهور مصنفات تاريخية وأخرى في التراجم، لم يمنح الإخباريين في المشرق والمغرب العربي خلال العصور الحديثة، من الجمع بين العلمين وتأكيد الترابط بينهما وفق رؤية للتاريخ قوامها الاعتبار من الأحداث ودور الرجال في صنعها.

وقد ظهرت مصنفات عديدة في التراجم، من أشهرها **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة** لنجم الدين الغزي (ت. 1651)<sup>(12)</sup>، و**خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر** لمحمد أمين المحبي (ت. 1699)<sup>(13)</sup>، و**سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر** لمحمد خليل المرادي (ت. 1791)<sup>(14)</sup>. وكتب حول هذه المصنفات المشرقية وأصحابها الكثير<sup>(15)</sup>.

أما في تونس، فقد أشار أحمد عبد السلام إلى تصنيف التونسيين لعدد من كتب التراجم في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. ولئن كانت هذه المصنفات غير مهمة عددياً، مقارنة بما ظهر في المغرب الأقصى في الفترة نفسها، فإنها كانت أحسن أسلوباً

7 شمس الدين السخاوي، **الإعلان بالتبويخ لمن ذم التاريخ** (بيروت: دار الكتاب العربي، 1979)، ص 5-6.

8 شمس الدين السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** (بيروت: دار الجيل، 1992).

9 شمس الدين السخاوي، **الذيل على رفع الإصر أو بغية العلماء والرواة**، تحقيق جوده هلال ومحمد محمود صبح وعلي الجاوي (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966).

10 أحمد بن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق محمد بن عبد المعيد خان، ط 2 (حيدرآباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1972).

11 لقد وضع صلاح الصفدي (ت. 1363)، في ما يبدو، قواعد كتابة التراجم وانتقلت إلى غيره من العلماء؛ أمثال جلال الدين السيوطي (ت. 1505) الذي ضبط منهج كتابة الترجمة، ناقلاً عنه، قائلاً: "بيدأ في التراجم باللقب، ثم بالكنية، ثم بالاسم، ثم بالنسبة إلى البلد، ثم إلى الأصل، ثم إلى المذهب في الفروع، ثم إلى المذهب في الاعتقاد، ثم إلى العلم والصناعة والخلافة، والسلطنة والوزارة والقضاء، والإمارة والمشخة كلها تقدم على الجميع"، انظر: جلال الدين السيوطي، **نظم العقيان في أعيان الأعيان**، تحقيق فيليب حتي (سوسة: دار المعارف للطباعة والنشر، 1999)، ص 10.

12 نجم الدين الغزي، **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**، تحقيق جبرائيل جبور، ط 2، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1989).

13 محمد أمين المحبي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر** (بيروت: دار صادر، د.ت.ا.).

14 محمد خليل المرادي، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، ط 3 (بيروت: دار ابن حزم، 1988).

15 على سبيل الذكر لا الحصر، انظر: ليلي الصباغ، **من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول** محمد الأمين المحبي المؤرخ وكتابه **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ط 10 (دمشق: الشركة المتحدة للتوزيع، 1986)؛ مهني مبيضي، **أهل القلم ودورهم في الحياة الثقافية في مدينة دمشق خلال الفترة (1121-1172هـ/1708-1758م)**، ط 2 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2017).

من كتب المناقب<sup>(16)</sup>. وذكر عبد السلام بإعجاب مصنف محمد قويسم (ت. 1702) المسمى **سمط اللال في تعريف ما بالشفاء من الرجال** الذي وضعه استناداً إلى كتاب القاضي عياض، المتوفى بمراكش عام 1149م، و**كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى**<sup>(17)</sup>، وذكر كتاب **مفاتيح النصر في التعريف بعلماء العصر** لمحمد العياضي (ت. بعد عام 1742) الذي عُرف بتقريبه من علي باشا (1740-1756)؛ إذ خصّه وأبناءه الثلاثة يونس ومحمد وسليمان بتقاريز، غير أنه ترجم لعدد من المشايخ والعلماء الذين عاشوا في النصف الأول من القرن الثامن عشر<sup>(18)</sup>. كما ساهم كل من الشيخ بيرم الثاني (ت. 1831) وبيرم الرابع (ت. 1861) في الترجمة للعلماء والمفتين الحنفيين، ولا سيما من آل بيرم<sup>(19)</sup>. أما محمد عيسى الكنانى (ت. 1875)، فقد ترجم للأولياء الصالحين من القيروان<sup>(20)</sup>. ثم وضع محمد السنوسي (ت. 1900)، وقد جاء ذلك متأخراً، كتابه **مسامرات الظريف بحسن التعريف** الذي ترجم فيه للقضاة والمفتين من أصحاب المذاهب المالكية والحنفية من الذين عاشوا بتونس، منذ مجيء الأتراك العثمانيين إلى عصر المؤلف<sup>(21)</sup>.

وإذا ما استثنينا هذه المصنفات التي تتفاوت من حيث أهميتها، ومن حيث نفعها للمؤرخ لاشتمالها على بعض الأخبار التاريخية، أو بعض الإشارات التي قد تساعد على دراسة فترة تاريخية أو قضية من قضايا التاريخ الثقافي أو السياسي، فإن بعض الإخباريين؛ كالوزير السراج (ت. 1737) صاحب **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، وحسين خوجة (ت. 1754) صاحب **ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان**، وأحمد بن أبي الضياف (ت. 1874) صاحب **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، قد اهتموا بالترجمة للعلماء ورجال الدولة والأعيان فأدرجوها بطرق مختلفة في مصنفاتهم إلى جانب المادة التاريخية<sup>(22)</sup>.

ونشير في هذا الصدد إلى أن أحمد عبد السلام لم يذكر من بين هؤلاء الصغير بن يوسف وكتابه **المشروع الملكي**، وإن كان ذكر في تقديمه لمحتوى الكتاب، وأقرّ بميل صاحبه إلى الترجمة؛ إذ "يتضمّن **المشروع** أيضاً وصفاً لمجموعة من الأشخاص كانت للمؤلف قدرة فائقة على تصويرهم متعاطفين، أو مثيرين للشفقة في مواقف مضحكة أحياناً"<sup>(23)</sup>.

يعتبر هذا الرأي تلميحاً من أحمد عبد السلام إلى ما قد نجده من تراجم أو معلومات وأخبار تتعلق بسيرة بعض الأشخاص أو الأعلام، بل يتأكد لنا هذا الرأي من خلال الربط الذي أقامه بين مصنفين اثنين أولهما مصنف في التراجم وهو **مفاتيح النصر** للعياضي السابق الذكر، وبين **المشروع الملكي**؛ إذ قال عنه: "يمكن أن نعتبر هذا الكتاب مكتملاً مفيداً لمفاتيح النصر الذي أتاح لنا التعرف بصفة أدقّ نسبياً على أوساط كبار رجال الدين والمدرسين والأدباء"<sup>(24)</sup>.

قادنا استنتاج عبد السلام إلى البحث عن صلة **المشروع الملكي** بعلم التراجم، وعن منهج الكتابة التاريخية عند الصغير بن يوسف. فهل نجد تراجم بالمعنى المتعارف عليه في هذا المصنف؟ وما هي نظرة الصغير بن يوسف إلى علم التاريخ وعلم التراجم؟ وهل كان على بينة بالترابط العضوي بينهما؟ وهل استفاد من التجارب السابقة له في المجالين؟

16 عبد السلام، ص 552. وحول كتب التراجم في المغرب الأقصى وأهميتها ونفعها للمؤرخين، انظر: ليفي بروفنسال، **مؤرخو الشرفاء**، ترجمة عبد القادر الجلادي (الرباط: دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977)، ص 53-57.

17 عبد السلام، ص 184. أما **السمط**، فلا يزال مخطوطاً، وهو موجود في عدة أجزاء: من رقم 11396 إلى رقم 11406، المكتبة الوطنية، تونس.

18 المرجع نفسه، ص 552-553؛ "مفاتيح النصر في التعريف بعلماء العصر للعياضي الباجي"، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، في: **النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بتونس**، العدد 4 (1976)، ص 99-206.

19 عبد السلام، المرجع نفسه، ص 224.

20 المرجع نفسه.

21 محمد السنوسي، **مسامرات الظريف بحسن التعريف**، تحقيق وتعليق محمد الشاذلي النيفر (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994).

22 عبد السلام، ص 553.

23 المرجع نفسه، ص 285.

24 المرجع نفسه، ص 266.

## الصغير بن يوسف وعلم التاريخ: مؤرخ هاوٍ ولكنه "مثقف"

أجمع الدارسون على وُلع الصغير بن يوسف بعلم التاريخ، فلم يكن من مؤرخي المركز أو البلاط المدافعين عن السلطة المركزية والخادمين لركابها. ولم يكن كذلك من بين المحترفين للكتابة التاريخية. وأتى له ذلك؟ إنَّ المؤرخ المهني لم يظهر بعدُ في تونس كما بيّن ذلك الباحث عبد الحميد هنية؛ إذ يقول: "لم تتحقّق مهنة المؤرخ إلا عندما حصلت مؤسسة تعليم التاريخ في المؤسسات التعليمية المستحدثة خلال القرن التاسع عشر"<sup>(25)</sup>. فقد صرّح الصغير بن يوسف في مقدمة كتابه، بوضوح، بعدم معرفته صناعة التاريخ، وأنه إنما كان مطلعًا على عدد من المصنّفات التاريخية، وفي صدارتها **تاريخ بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان** وذيله لحسين خوجة (ت. 1754)، المؤرخ الرسمي لحسين بن علي<sup>(26)</sup>. ولئن كان هذا المصنّف مرجعًا للصغير بن يوسف، بل إنه اعتبر كتابه **المشرع الملكي** تكملة وذيلًا على **الذيل**، فذلك من باب الربط بينه وبين شهرة حسين خوجة وغيره من السابقين، وإضفاء نوع من الشرعية على الكتابة التاريخية التي يقوم بها. بل إن هذه الرؤية تتأكد في الكتابة التاريخية من خلال مصنف آخر للصغير بن يوسف، لا يزال مخطوطًا، وهو موسوم بـ **التكميل المُشفي للغليل على كتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون**. فكان للصغير بن يوسف رغبة في تدوين تاريخ أفريقية من العهد الحفصي إلى مجيء الأتراك العثمانيين، وصولًا إلى أحداث عصره. وقد انطلق من كتاب **العبر**، ولكنه نقل في **التكميل** عن آخرين؛ من أمثال ابن أبي دينار، والوزير السراج، وحسين خوجة<sup>(27)</sup>. ويبدو أن منهج التذليل، على غرار منهج كتابه، طغى على الصغير بن يوسف في التصنيف؛ فالإشارة إلى **جانب التكميل**، وضع مصنفًا آخر وسمّه بـ **المذيل على الرسالتين المسماة إحداهما "أبناء نجباء الأبناء" والثانية المسماة بـ "سلوان المطاع في عدوان الاتباع"**، وهما رسالتان منسوبتان إلى ابن ظفر الصقلي (ت. 1170م)، وفيهما مواضع وعبر كان قد جمعها الصغير بن يوسف من مصادر مختلفة من التراث الفارسي والإسلامي عامة<sup>(28)</sup>.

ولا يختلف من هذه الناحية الصغير بن يوسف عن غيره من الإخباريين في المجال العربي الإسلامي الذين دأبوا على اعتبار مصنّفاتهم التاريخية ذيلًا، أو تكملة لمصنّفات من سبقهم<sup>(29)</sup>. ولكن ذلك لا يعني انعدام خصوصيات واختلاف في المنهج، وإضافات على مستوى الكتابة التاريخية عند الصغير بن يوسف. فقد يفتّر القارئ إزاء بعض ما جاء في **المشرع الملكي** من إطرأ لحسين بن علي وتخليد لأعماله، على غرار ما قام به حسين خوجة في **الذيل** من مدح وتقريظ وإطرأ لمؤسس العائلة الحسينية، ولكل ما قام به قبل أن تندلع الحرب الأهلية في عام 1728. لكن الأسلوب الطاغبي على الكتابة التاريخية عند الصغير بن يوسف هو عدم الانحياز إلى طرف دون آخر، وإن كان لا يخفي أحيانًا معارضته الشديدة لسياسة الاستبداد والبطش التي سلكها علي باشا ضد خصومه السياسيين، المعبر عنهم في عدة مصادر بـ "المهجرسين"<sup>(30)</sup>. لقد سعى الصغير بن يوسف في **المشرع الملكي** إلى رواية الأخبار وسردها، متوخّيًا سبيل ما قد نطلق عليه اليوم

25 تنفق تمامًا، إلى حد التماهي، مع الأستاذ عبد الحميد هنية في تحاليله واستنتاجاته حول صورة المؤرخ وعلم التاريخ في تونس العثمانية. بشأن ما كتبه حول الموضوع في الفترة الأخيرة، انظر: عبد الحميد هنية، "التجديد في مجال علم التاريخ في البلاد التونسية بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر ميلاديًا"، **أسطور للدراسات التاريخية**، العدد 7 (كانون الثاني/يناير 2018)، ص 44-72.

26 حسين خوجة، **ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان**، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري (تونس/ليبيا: الدار العربية للكتاب، 1975). وحول حسين خوجة ومصنّفه، انظر: عبد السلام، ص 219-236. وحول التكميل ومحتواه، انظر: محمد فوزي المستغنامي، "التكميل والمذيل: عنوانان آخران للصغير بن يوسف ونافذتان جديدتان على المؤرخ"، في: **مسار مؤرخ وتجربة تاريخية: أعمال مهداة إلى محمد الهادي الشريف**، تنسيق عبد الحميد هنية (تونس: نشر دراسات مغاربية/ مركز النشر الجامعي، 2008)، ص 71-94.

27 المرجع نفسه، ص 72-75.

28 المرجع نفسه، وتوجد نسخة مخطوطة من **التكميل** بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 5264، ونسخة مخطوطة من **المذيل** رقم 9984، وأخرى رقم 9761.

29 ليلي عبد اللطيف أحمد، **دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني** (القاهرة: مكتبة الخانجي بمصر، 1980)، ص 184.

30 الصغير بن يوسف، ج 3، ص 5-25.

"الموضوعية" في سرد الأحداث أو الوقائع التاريخية؛ كما تفيد بذلك العبارات والكلمات التي يعتمدها في نقل الخبر وروايته<sup>(31)</sup>. بل كثيراً ما يذكر مصادر خبره؛ من ذلك ما دونه من أخبار حول مجيء عسكر الجزائر مع الأميرين محمد وعلي ومحاربتهم لعللي باشا، بداية من 6 حزيران/ يونيو 1756، والانتصار عليه نهائياً حين قُتل يوم 25 أيلول/ سبتمبر 1756، ومبايعة محمد بن حسين بن علي باياً على البلاد. فقد ذكر الصغير بن يوسف مصدره في كل ذلك قائلاً: "حدثني الكاتب علي العبيد وكان جاء مع البايات وكلما كتبه منقولاً عنه [كذا] من موت الدولتلي أحمد إلى تمام هذه الواقعة"<sup>(32)</sup>. لقد عاش الصغير بن يوسف فترة مهمة وحرجة في تاريخ تونس العثمانية، هي فترة الحرب الباشية التي شهدت أعنف مراحل الصراع بين أمراء العائلة الحسينية، وقد شهدت تدخل دايات الجزائر في الصراع. وكان لتلك الأحداث التي عاصرها، بل شارك فيها باعتباره جندياً وبحكم انتمائه إلى الحنفية، أثرٌ كبير في حياته الشخصية كما لَمَحَ إلى ذلك مراراً في كتابه، وأثرت الظرفية كذلك في اندفاعه إلى كتابة التاريخ، وفي منهجه<sup>(33)</sup>.

وعلى هذا النحو، يمكن القول إن النظرة إلى علم التاريخ عند الصغير بن يوسف تختلف نسيباً عما كانت عليه لدى بعض معاصريه؛ من أمثال حسين خوجة والوزير السراج (ت. 1737)، وحمودة بن عبد العزيز (ت. 1787)، باعتبارهم من مؤرخي البلاط في تونس خلال القرن الثامن عشر. فالتاريخ بالنسبة إلى الصغير بن يوسف هو علم ينتظم في مشروع ثقافي إسلامي المنبع ورؤية تقليدية لعلم التاريخ قوامها وجوب الاعتبار من الماضي والحث على النظر والتأمل في التجارب الإنسانية الماضية. وهو من هذه الناحية لا يختلف كثيراً عن النظرة الكلاسيكية للتاريخ عند العرب والمسلمين وعن نظرة ابن خلدون للتاريخ. وقوام هذه النظرة الاعتبار من أخبار الماضي وأحداثه، علماً أن الاهتمام بابن خلدون، والشغف بالمقدمة، قد انتشرا بقوة في أوساط البلاط الحسيني في مدة حياة الصغير بن يوسف الذي تأثر بدوره بابن خلدون ورؤيته للتاريخ<sup>(34)</sup>.

في هذا الصدد، ذكر الصغير بن يوسف أمثلة معبّرة بالنسبة إليه عن أن التاريخ مليء بالعبر والمواعظ: "إن علم التاريخ عبرة للمعتبرين وحصول وعظ للسامعين والناظرين في سير السابقين واللاحقين"<sup>(35)</sup>. فمن الأمثلة الواجب اعتبارها، ذكر الصحابي سلمان الفارسي وأصله من أصفهان، وهو من أول من أسلم من غير العرب وأدى دوراً كبيراً في معركة الخندق ضد قريش، ثم أصبح والياً على مدينة المدائن بالعراق إلى أن توفي عام 656م.

أما المثال الثاني للاعتبار، فهو السلطان العثماني بايزيد الأول (1345-1403م) الذي انهزم هزيمة ساحقة أمام تيمورلنك (1336-1405م) سلطان التتار، أو المغول، في معركة شهيرة عُرفت بـ "معركة أنقرة" في 20 تموز/ يوليو 1402م؛ إذ إنه أُسر ومات في الأسر يوم 10 آذار/ مارس 1403م في مدينة بورصة. وقد وصل بايزيد إلى العرش عام 1389م، ولُقب بـ "يلدرم"، أي الصاعقة، نظراً إلى حركته السريعة بجيوشه، فقد فتح بلغاريا عام 1395م، وعدة مناطق أخرى في أوروبا، لكن ما يمكن الاعتبار به أيضاً بحسب الصغير بن يوسف، هو الحرب الأهلية التي دارت بين أبناء بايزيد الأربعة على عرش السلطنة. وختم الصغير بن يوسف أمثلته بعلي باشا، إن القاسم المشترك بينه وبين بايزيد الأول، في نظرنا ليس إلا جرأة كلٍّ منهما في سفك الدماء والبطش ووسط النفوذ والتوسع من جهة، ثم ما آل إليه حكم كل

31 المرجع نفسه، ج 1، ص 8.

32 المرجع نفسه، ج 4، ص 80-81.

33 المرجع نفسه، ج 3، ص 85، 95-96.

34 هنية، ص 5-51.

35 "لله التصرف... ويعز من يشاء كسلمان الفارسي... ويذل من يشاء كعبي يزيد سلطان الروم حين أسره تيمور أمير التتار وكسلطان تونس علي باشا حين تفرقت عليه الأنصار، ولم ينفعه ما شيده من الأسوار، فاعتبروا يا أولي الأبصار"، الصغير بن يوسف، ج 1، ص 15.

منهما من انهزام وزوال، وخاصة الحرب الأهلية بين الأشقاء من جهة أخرى. فكأن الصغير بن يوسف يوازي بين الصراع على السلطة بين أبناء السلطان بايزيد في مركز الإمبراطورية والصراع على السلطة في الإيالة في عهدي حسين بن علي وعلي باشا.

تحيلنا الاستطرادات التاريخية والشواهد العديدة التي يتوسل الصغير بن يوسف بها لتدوين أحداث عصره على إشكالية ثقافته وثقافة الإخباريين عامة، وعلى ما اصطلاح بتسميته "ثقافة الطبقة الوسطى" على حد عبارة نللي حنا في دراستها حول مصر العثمانية<sup>(36)</sup>. وقد شملت الدراسة فتتي التجار والحرفيين بالقاهرة، وحظيت - كما هو معلوم - باهتمام المؤرخ أندري ريمون. فهل يعبر ما ذهب إليه البعض من مزج الصغير بن يوسف بين العربية الفصحى والعامية المتداولة في **المشرع الملكي** عن ثقافته المحدودة؟ أم أنّ أسلوبه في الكتابة التاريخية يعكس ثقافة عصره وما طرأ على اللغة وأساليب الكتابة من تغيير لدى الفئات الوسطى؟

بصرف النظر عما يثيره استعمال مفهوم "الطبقة الوسطى" وتطبيقه على التشكيلة الاجتماعية في تونس العثمانية وعلى الصغير بن يوسف مثلاً من إشكاليات - إذ لم يكن من التجار والحرفيين كما هي الحال في دراسة نللي حنا - قد تقودنا إلى الإطالة والاستطراد، فإننا لا نرى حرجاً في استعماله لأغراضنا في هذا البحث. فهناك تشابه كبير بين أوضاع إيالتي مصر وتونس، ونقاط التقاء عديدة بين ثقافة الصغير بن يوسف وكتابه للتاريخ وغيره من الإخباريين في مصر في العصر الحديث. فقد ظهرت بها مدرسة الأجناد، وهم من الذين انتسوا إلى الفرق العسكرية، ولكنهم اتخذوا من كتابة التاريخ هواية لهم؛ من أمثال أحمد الدمرداش، وإبراهيم الصوالحي، ويوسف الملواني، وأحمد شلبي عبد الغني، وغيرهم، كما بيّنت ذلك ليلي عبد اللطيف أحمد<sup>(37)</sup>. أما نللي حنا، فذكرت في دراستها مجموعة من الإخباريين المختلفي الثقافة عن العلماء؛ من أمثال يوسف الشربيني، ومرضى الزبيدي وعبد الرحمن الجبرتي. وذكرت كذلك إخباريين من بلاد الشام؛ من أمثال البديري الحلاق، ومحمد عيسى بن كنان وغيرهما من الإخباريين في الإيالات العربية العثمانية الذين كتبوا بلغة عربية وسطى تعكس ثقافة الطبقة الوسطى. تشي هذه الكتابة وهذه المصنفات التاريخية، وغيرها، بتطور اللغة العربية وامتزاجها بلغات ولهجات أخرى محلية وأجنبية منذ نهاية القرن السادس عشر؛ بسبب عدة عوامل، من بينها الانفصال التدريجي عن ثقافة الإمبراطورية العثمانية في المركز وعن السياق الإمبراطوري عامة في الإيالات، فضلاً عن عامل توسع التجارة الدولية والاحتكاك مع الغرب وتسرب الرأسمالية التجارية والظرفية السياسية، عامةً، بالإيالات العربية العثمانية وما عرفته من تحولات على جميع المستويات، ولا سيما المستوى الثقافي في العصور الحديثة<sup>(38)</sup>.

لا تعوزنا الأدلة على اعتبار الصغير بن يوسف يمتلك ثقافة الطبقة الوسطى لعصره، وذلك رغم ما كان له من ثروة عقارية، ورغم انتمائه إلى الملاكين العقاريين والعائلات الميسورة في مدينة باجة. بل لعل هذه الثروة هي التي سمحت له بتبوء منزلة "المثقف"، رغم ما تطرحه هذه الصفة من إشكالات في البيئة الثقافية التونسية، خلال القرن الثامن عشر، التي تناولها بالدرس والتحليل الباحث عبد السلام وبيّن خصائصها، ولا سيما طابعها المحافظ والتقليدي؛ ذلك أن العلوم الشرعية تحتل الصدارة في الاهتمام والتعليم<sup>(39)</sup>. ومهما يكن من أمر، فقد تلقى الصغير بن يوسف، على غرار أبناء عصره، نصيباً من التعليم الراجح في الكتاتيب والمساجد والزوايا في مدينة باجة. وهو ما مكّنه من القراءة والكتابة، بل كان نشأاً للكتب جامعاً لها في ما يبدو<sup>(40)</sup>. واستناداً إلى عدة مصادر، بيّن الباحث محمد الحبيب الهيلة أن

36 نللي حنا، **ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية (ق16-ق18)**، ترجمة رؤوف عباس (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2004). كما عادت حنا إلى موضوع اللغة وثقافة الإخباريين في العهد العثماني، انظر: نللي حنا، **مصر العثمانية والتحوّلات العالمية 1500-1800**، ترجمة مجدي جرجس (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2016).

37 أحمد، ص 148-150.

38 حنا، **مصر العثمانية**، ص 55 وما بعدها.

39 عبد السلام، ص 94-95.

40 الصغير بن يوسف، ص 134.

"مدينة باجة عرفت شيئاً من الازدهار الثقافي في العهد التركي فطلّت مركزاً ثقافياً من الدرجة الوسطى منذ أن أسس بها محمد باي مدرسته التي أوقف عليها أوقافاً هامةً وبنى بها الداوي مامي الجمل مسجدها الحنفي وأنجز بها علي داوي مدرسته التي ضمن لها ولطلابها مجاري الرزق بما أوقفه عليها من أحباس، كل ذلك هيئاً لها احتضان حركة علمية"<sup>(41)</sup>. غير أن الثقافة في عصر الصغير بن يوسف، كانت تكتسب كذلك بارتياح الفضاءات العامة؛ كالمقاهي، والزوايا، والمجالس الخاصة، والأسواق، وغيرها من الفضاءات العامة التي تنتشر فيها الثقافة الشفاهية عن طريق "الحكي" والإنشاد والغناء والمشاهدة. وهو ما توفر للصغير بن يوسف الذي يذكر في العديد من المواطنين من مصنفه ما يفيد اختلاطه بعدة أوساط، وتردده على الفضاءات العامة بباجة وخارجها، واكتسابه - تبعاً لذلك - ثقافةً رائجة في زمانه. ولا تفوتنا الإشارة إلى دور شبكة العلاقات التي كانت للصغير بن يوسف مع الكتاب والعلماء وأعيان الدولة في تزويده بالأخبار، وفي صقل مواهبه وإثراء ثقافته، ليحتل في المخيال الجماعي وفي الذاكرة مرتبة "المثقف".

إن استعمال الصغير بن يوسف لأسلوب يمزج بين الفصحى واللهجة العامية، لم يمنع البعض من أن يطلق عليه - كما تبيّن رسموم الأوقاف وغيرها من وثائق الملكية التي ترجع إلى أوائل القرن التاسع عشر، والتي اعتمدها زهير بن يوسف - لقب "القارئ"، بل "الفقيه" أيضاً، علاوة على شهرته بلقب "الشيخ"، ولقب "الحاج"، وجميعها يعبر عن مستوى ثقافي. ولئن لم يكن يرتقي إلى ثقافة النخبة العاملة من العلماء الزيتونيين، فإنه يعبر - فعلاً - عن ثقافة الطبقة الوسطى في بعض المدن التونسية في العصر الحديث<sup>(42)</sup>. وهي ثقافة متنوعة ومنفتحة، ثقافة شفاهية ومكتوبة معاً، وهذا ما لاحظته نللي حنا بالنسبة إلى المجتمع الحضري في مصر العثمانية<sup>(43)</sup>. فمن خلال **المشرع الملكي** يمكن القول إن دخول الثقافة الشفاهية مجال التدوين في القرن الثامن عشر ليس إلا تنويجاً لظاهرة ثقافية بدأت منذ أواخر العصر الوسيط، ولربما منذ عصر ابن خلدون، لتتدعم تدريجياً في العصر الحديث. ولعل أحسن دليل على ذلك ابتعاد القضاة في تحرير الوثائق والأحكام، على مستوى الألفاظ أو التراكيب، عن اللغة العربية الفصحى، بل اعتمادهم في مستوى الأحكام على العرف المحلي والعمل التونسي. ومن أشهر الأمثلة الدالة على ذلك ما نجده في فتاوى قاسم عظمم الراجعة إلى أواخر القرن السادس عشر.

وتواصل الأسلوب نفسه في الكتابة واللغة المستعملة وهي لغة عربية وسطى، خلال القرن السابع عشر وانتقل إلى ابن أبي دينار (ت. 1699)، وهو قاضٍ وفقه، وكثيراً ما نجد التراكيب والمفردات العامية في مؤسسه، وهو من المصادر الإخبارية التي اعتمدها الصغير بن يوسف وأطلع عليها، بل نقل عنه في مصنفه **التكميل** كما أشرنا إلى ذلك. وفي هذا الصدد، يمكن أن نشير كذلك إلى مصنف آخر في التاريخ المحلي لبلاد الجريد وبلاد سوف وإن كان صاحبه من إيالة الجزائر، وهو **تاريخ العدواني**. فقد احتوى بدوره على حكايات وأخبار كتبت بلغة دارجة محلية، سوفية أو جريدية، وبأسلوب في السرد والتدوين للأحداث يعكس الثقافة الرائجة في مجال الواحات في القرن السابع عشر<sup>(44)</sup>.

أما كتبة الإدارة المركزية بمختلف دواوينها، إذا ما استثنينا بعض المراسلات الرسمية أو النصوص القانونية، فقد كتبوا في الدفاتر والسجلات الجبائية والإدارية بلغة مباشرة وغير بروتوكولية تعكس الثقافة السائدة ولغة عامة الناس من جهة، وحرص الجهاز الإداري للدولة على النجاعة والفاعلية من جهة أخرى. وهكذا نخلص إلى القول مع نللي حنا ومع عبد الحميد هنية، ومع غيرهما من الدارسين، وعلى عكس ما ذهب إليه أحمد عبد السلام وغيره، إن استعمال اللغة العربية الوسطى لا يعبر عن تدهور فكري أو تدني المستوى الثقافي

41 الهيلة، ص 103.

42 الصغير بن يوسف، ص 127، 139، 141.

43 حنا، **ثقافة الطبقة**، ص 96.44 محمد بن محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني**، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1996)، ص 13.



لدى الطبقة الوسطى عامة، ولدى الصغير بن يوسف تحديداً، بقدر ما يعبر عن تطور في منهج الكتابة التاريخية قوامه نقل الأحداث التاريخية وتقريبها من العامة في نزعة واقعية، تهتم بذاكرة الدولة الحسينية ولكنها تهتم بمشاغل الناس وحياتهم اليومية معاً<sup>(45)</sup>.

ولا يستقيم فهمنا لمنهج الكتابة التاريخية عند الصغير بن يوسف ونظرته للتاريخ إلا بتتبع أخبار النزاع والصراع على السلطة في الإيالة التونسية في النصف الأول من القرن الثامن عشر<sup>(46)</sup>. غير أن النزاع بين البايات الحسينيين لم يمنع الصغير بن يوسف من الاهتمام بمسائل أخرى قد تبدو لنا ثانوية، وهي تتعلق بجوانب من الظرفية الاقتصادية والفلاحية، وبجوانب من التاريخ الاجتماعي، مثل أوضاع بعض الفئات الاجتماعية، ولا سيما الكراغلة، وبالحيات اليومية بالأرياف والمدن<sup>(47)</sup>. وفي الإطار نفسه اهتم الصغير بن يوسف - كما لمحنا إلى ذلك - بالتراجم والسير. فالتاريخ، أو التأريخ للملك، بحسب تعبيره، وفي نظره، قوامه التعريف بسير السلاطين والمشاهير من الرجال، بل إنه ينسب إليهم جميع الأحداث، ويجعل منهم الفاعلين الاجتماعيين الرئيسيين، ثم إن التاريخ لا يدرك إلا في ضوء صفاتهم وخصالهم وخبراتهم، وبذلك أصبح التاريخ عند الصغير بن يوسف متداخلاً مع التراجم وسير الرجال؛ فقد سجل - بوصفه شاهد عيان - بذاكرة إخباري شديد الملاحظة، مع التنبه بوعي متعلق بأهمية دور الفاعلين، أخبار الحرب الأهلية أو الفتنة الباشية وأطوارها، وغيرها من الأخبار المتعلقة بالبايات وأعيان الدولة من الكتاب والوزراء، فضلاً عن العلماء والمشايخ وبعض الأولياء الصالحين، وغيرهم ممن شاهدتهم أو عرفهم أو "سمع بأذنه عنهم"<sup>(48)</sup> بحسب عبارته. فبم تمازج تراجم الصغير بن يوسف؟ وكيف يبدو لنا الاختراق المتبادل بين التاريخ والتراجم عنده؟

## الاختراق المتبادل بين التاريخ والتراجم في المشرع الملكي

سبق أن بيّنا، في إيجاز، العلاقة بين علم التاريخ وعلم التراجم، والتي آلت إلى استقلال الأول عن الثاني منذ عصر ابن خلدون، ثم تحوّل التراجم إلى فرع أو علم من العلوم المساعدة للتاريخ. ولعلّ هذا التحوّل قد وصل إلى حد الاختراق المتبادل بين المجالين في المشرع الملكي، وربما يفسّر ذلك أولاً من خلال نظرة الصغير بن يوسف إلى علم التاريخ.

ولكن لم يكشف الدارسون إلى اليوم عن هذا الاختراق المتبادل بين التاريخ والتراجم، وهذا التجاذب بين علمين يشدّ الواحد منهما الآخر ويتممه في كتاب المشرع الملكي، لعدة أسباب؛ من أهمها اختلاف التراجم الواردة في المشرع الملكي عن النظام المعمول به في كتب التراجم والتاريخ المتداولة، ولا سيما في عصر المؤلف كالتراجم الواردة في **ذيل بشائر أهل الإيمان** لحسين خوجة. فالتراجم وإن كانت تختلف في طولها من ترجمة إلى أخرى، فإنها عادة ما تشترك بصفة بارزة في ذكر المترجم لعناصر أساسية؛ هي الاسم، واللقب، والنسبة، ومكان الولادة، وأحياناً قليلة تاريخها. ثم يمر المترجم - إذا كانت الترجمة لعالم أو أديب - إلى ذكر معلومات أخرى عن المترجم له، كمراحل الدراسة وأماكنها والمدرسين أو المشايخ الذين أخذ عنهم، ثم يذكر الوظائف الدينية والعلمية التي تقلدها، وفي الأخير يتمّ ذكر مؤلفاته ومناقبه وتاريخ وفاته<sup>(49)</sup>. وقد لمحنا إلى استقرار هذه الطريقة في كتابة التراجم منذ القرن الرابع عشر على الأقل وتواصلها

45 هنية، ص 63-65.

46 كتب الكثير حول نظرة الصغير بن يوسف والإخباريين عامة بشأن ما يعرف بـ "الفتنة الباشية". إلى جانب أعمال الأستاذ الشريف المذكورة هنا، وبقية الإحالات، انظر: فاطمة بن سليمان، "بين الذاكرة والتاريخ: قراءة الإخباريين التونسيين للصراع الباشي الحسيني خلال القرن الثامن عشر"، في: **الكراسات التونسية**، العدد 155-156، 2005 ص 185-210.

47 Khalifa Chater, "En marge d'une lecture du chroniqueur Seghir Ben Youssef: La situation économique et sociale de la régence de Tunis au XVIIIè siècle," *Revue d'Histoire Maghrébine*, no. 39-40 (1985).

48 الصغير بن يوسف، **المشرع الملكي**، ج 1، ص 17 ("فاستخرت الله تحليلي في جمع كتاب يشتمل على وقائع البيات الأربع [كذا] مما رأيته بعيني أو سمعته أذني").

49 عبد السلام، ص 230-231.

بصفة نمطية، مشرقاً ومغرباً، باختلاف أنواعها واختلاف اهتمامات أصحابها. فمنهم من اهتم بالترجمة للعلماء من فقهاء وقضاة دون سواهم، ومنهم من اهتم بأعيان الدولة ورجالها، ومنهم من جمع بين مختلف العلماء والأعيان.

وقد أجمع الدارسون أن التراجم، بما في ذلك التي وضعها الإخباريون في المشرق والمغرب العربي، لا تخضع في كتابتها دائماً لتخطيط ثابت وصارم، وإنما تختلف في طولها وقصرها ومحتواها بحسب وضعية الشخصية، وطبيعة عصره، وعلاقة المترجم الدنيوية بالمترجم له. وعلى هذا النحو يمكن القول إن طريقة وضع التراجم في **المشروع الملكي** لم تكن كلاسيكية أو نمطية، بمعنى تتبع سيرة الفاعل من ولادته إلى وفاته، وإنما اتخذت نظاماً مختلفاً قوامه الجمع بين الخبر والمعطيات الخاصة، مع اختلاف في الطول والقصر، وفي دقة المعلومات. ولا يعتبر هذا شذوذاً من الصغير بن يوسف، بل قد نعثر لدى عدد آخر من الإخباريين الذين سبقوه في المجال العربي الإسلامي على هذا التباين في الترجمات ومادتها وتداخلها مع الخبر<sup>(50)</sup>.

ولا يتسع المجال لذكر كل الأمثلة الواردة في **المشروع الملكي** لما اعتبرناه تراجم تؤكد الاختراق المتبادل بين التاريخ والتراجم والسير وطرافة الأسلوب والمنهج لدى الصغير بن يوسف، وفي وضعه لها. فقد أولى أخبار الفاعلين الاجتماعيين جانباً كبيراً من اهتماماته مقدماً صورة حية عن البيئة الاجتماعية التي عاش فيها في مدينة تونس، وكذلك في مسقط رأسه مدينة باجة. وحسبنا التوقف عند بعض ما جاء من تراجم تعبر عن تفرد وتميزه مقارنة بمن سواه.

ينفرد صاحب **المشروع الملكي** في هذا الصدد، بذكر أخبار النساء بدقة متناهية معتمداً في ذلك على ما شاهده، وما سمعه من أخبار وقصص، ترتقي أحياناً إلى مرتبة الحكاية وما يشوبها من خلط بين الأسطورة والتاريخ. ومن الأمثلة المعبرة عن ذلك ما ذكره الصغير بن يوسف حول كبيرة مامية زوجة علي باشا بعد تمرده<sup>(51)</sup>. فهي ابنة الباي حسين بن علي كما هو معلوم. وقد اكتوت بنار الفتنة والصراع على السلطة بين أفراد العائلة الحسينية، فطفقت تسعى إلى عدم تكرار ذلك بين أبنائها. وهو ما قد يحيلنا على الدور السياسي للحريم في البلاط الحسيني. فقد حضر الصغير بن يوسف جنازة كبيرة مامية ووصف الحدث بدقة متناهية، وبشيء من المبالغة، وربط بينه وبين انقلاب الأوضاع في البلاد بموتها عام 1748. واعتبر ذلك بداية النهاية لحكم علي باشا قائلاً: "ولما مات الجمل تفرق الحمل، واختلف العمل. وأول مصيبة أصابها الباشا علي في الأهل، وأمره قد انحل"<sup>(52)</sup>.

ولكن يمكن أن نذكر، من بين الأمثلة المعبرة والداعمة لهذه القراءة التي تجعل من تراجم الصغير بن يوسف متداخلة مع التاريخ والأخبار وتعكس نظرتة للتاريخ، نماذج أخرى من تراجمه. فمن أطول التراجم وأكثرها طرافة وتفصيلاً، ترجمة الباشا كاتب قاسم بن سلطنة الباجي<sup>(53)</sup>. فقد توقّف الصغير بن يوسف طويلاً عند ثروته وما بناه من قصور وما كان له ولابنه أحمد بن سلطنة من أموال؛ وتبعاً لذلك من نفوذ في دولة حسين بن علي أدت بهما في النهاية إلى استصدار كسبهما وسجنهما: "وأما أملاك قاسم بن سلطنة اليوم كلها تتصرف فيها السلطنة، وهي أملاك عظيمة، لها قيمة، والقمح يلوح ويدور ويرجع إلى الرحاء"<sup>(54)</sup>. وعرف في عهد علي باشا، الحفيد محمد بن سلطنة، المصير نفسه الذي أصاب والده وجده.

50 في هذا السياق نذكر، على سبيل المثال، تراجم ابن حجر العسقلاني، **إنباء الغمر بأبناء العمر**؛ كما بين ذلك عز الدين، انظر: محمد كمال الدين عز الدين، **التاريخ والمنهج التاريخي لابن حجر العسقلاني** (القاهرة: دار إقرأ، 1980)، ص 267-275؛ حول تراجم المحبي والمرادي والغزي وغيرهم، انظر: زيادة، ص 70 وما بعدها. وليس معنى هذه المقارنة أن تراجم الصغير بن يوسف ترتقي إلى أهمية تراجم المرادي أو المحبي بدهاة.

51 الصغير بن يوسف، ج 1، ص 95.

52 المرجع نفسه، ج 3، ص 133.

53 المرجع نفسه، ج 2، ص 54-70.

54 المرجع نفسه، ص 70.

لا تخرج هذه الترجمة، في نهاية المطاف، عن تصور الصغير بن يوسف للثروة وزوال النعم كلما كان صاحبها في علاقة بالمخزن، عملاً بالمثل الشعبي المذكور الذي استشهد به، والمعبر عن الانتقال من حالة الفقر إلى الغنى، ثم الرجوع إلى الحالة الأولى للفرد في حركة دائرية يرمز إليها دوران الرحى وطحنها للقمح. غير أن الرحى ترمز بدورها إلى البابليكي أو المخزن الذي كان السبب الرئيس في ذلك. وهو ما يذكرنا بمثل شعبي آخر يعبر عن الظاهرة الاجتماعية نفسها في تونس العثمانية؛ هو "المخزن مُحزَن". فكثيراً ما انتهت حياة المخازنية وأعيان الدولة نهاية مأساوية وحزينة وصادمة خلّدت ذكرها التراجم. ويتأكد لنا التوجس من خدمة البابليكي في الأوساط الحضرية، وفي المجتمع التونسي بصفة عامة من خلال ترجمة جاب الله بوفردة كاهية بلد باجة في زمن حسين بن علي وهو من المتمرسين بالخدمة العسكرية، ولم تشفع له خبرته ولا مكانته في أن تكون نهاية حياته نهايةً تراجمية. فقد ذكر عنه الصغير بن يوسف خدمته لآخر البايات المراديين ثم لإبراهيم الشريف وحسين بن علي، ثم توقف عند نكبته وقتله بأمر من يونس باشا والتنكيل ببحثه<sup>(55)</sup>. وكان ذلك، في ما يبدو، من تسلسل الأحداث قبل قتل الباي حسين بن علي في 13 أيار/ مايو 1740.

أما الحاج علي المنتشالي، فهو من العناصر الفاعلة في الصراع بين الباشية والحسينية، ينحدر من أحد الدايات، وكان قد انحاز إلى علي باشا: "كان من أولاد الدايات وكان فاقداً إحدى كريمةيه وداره معلومة في تونس [...] وكان [...] صاحب شبية ولحية كثيفة، وكان صاحب نفس أبية ولسان طويلة وسوء خلق [...]"<sup>(56)</sup>. لقد أراد الصغير بن يوسف، من ذكر خبر المنتشالي، وبعض التفاصيل عن أوصافه وأخلاقه، الاعتبار من سيرته في علاقة ببعض القيم الأخلاقية والمواظ في الثقافة العربية الإسلامية ومثلها. فقد اعتبر أن المنتشالي ذهب ضحية ما يديه من ميل إلى علي باشا والإجهار بذلك إلى أن صُف من بين المهجرسين. وكأنه لم يعتبر من التاريخ ولم يتبع السنة النبوية. فسرد لنا الصغير بن يوسف قصة أبي يوسف يعقوب بن الشكيت (ت. 859م) مع المتوكل العباسي؛ إذ قُتل بسبب ضرر لسانه وعثرته وعدم تحفظه وإفصاحه بتشيعه للإمام علي بن أبي طالب وحبه له. فقد جاء في الحديث أن "أكثر خطايا بني آدم من لسانه"<sup>(57)</sup>. وفي الصدود نفسه، وإيماناً منه، بحسب ما ذكره، بأن:

"عثرة اللسان تبرى رقبة الرجل عثرة الرجل تبرا على مهل"

فإن الصغير بن يوسف استطرد في ترجمة أحد خواص الباي حسين وهو الحاج محمد المنقي، قائلاً: "كان رجلاً طويلاً ذو لحية [كذا] طويلة الغالب عليها الشيب [...] ومن دار قديمة موسومة بالقيادة [...] وأنا أعرفه كم من مرة رأيته فاقفتى آثار آبائه وأجداده"<sup>(58)</sup>. لقد مال هذا المخازني في ما بعد إلى علي باشا، وهو ما عجل بقتله من قبل حسين بن علي. ومثل ذلك ضربة قوية لأتباع خصمه في المرحلة الأولى من الصراع، فأصبح من دون سندٍ اجتماعي ومالي، إذا ما علمنا ثروة المنقي ودعمه له<sup>(59)</sup>.

يبدو أن الصغير بن يوسف انشغل كثيراً في **المشعر الملكي** بقضية المهجرسين، واعتبر قتلهم ناجماً عن تدخلهم في الصراع على السلطة بين أفراد العائلة الحسينية، وهو بذلك يتخذ موقفاً أخلاقياً وسياسياً في آن واحد.

إن "التهجريس" في المصادر الأرشيفية تهمة موجبة لخطية مالية. وقد ألصقت بالأفراد الذين اتهموا من قبل الباي حسين أولاً، ثم من قبل ابنه محمد وعلي، وكذلك من قبل علي باشا، بالخروج عن طاعة السلطة، واصطفوا مع الباشية أو الحسينية. ويعتبر

55 المرجع نفسه، ص 160-161.

56 المرجع نفسه، ج 1، ص 224-225. أما جده من الدايات، فهو الحاج محمد منتشالي. كان داياً أحد عشر شهراً خلال عام 1673، انظر: ترجمته في: حوجة، ص 97.

57 الصغير بن يوسف، ج 1، ص 226-227.

58 المرجع نفسه، ص 228.

59 المرجع نفسه، ص 228-229.

التهجريس من التُّهم التي لا تختلف كثيراً في خطورتها عن تهمة الفساد السياسي الموجبة للردع في تونس خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. والتهجريس صفة مأخوذة من "الهَجْرَس"؛ وهو صغير الثعلب في اللغة العربية. ووجه الشبه بين الطرفين هو الخداع والمكر<sup>(60)</sup>. وعلى هذا النحو، ظهر في الإيالة التونسية تصنيف سياسي - اجتماعي وتحقيري محلي لكل الأفراد والمجموعات التي تعارض النظام القائم في علاقة وطيدة بالفتنة الباشية، وقد ذهب ضحية ذلك عدد من سكان البلاد. وبعد أن استقرت الأوضاع السياسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، غاب هذا التصنيف في المصادر الإخبارية والأرشيفية، وتم تعويضه بتصنيفات أخرى؛ كالثوار، والمنافقين، والفاسدين.

ومن بين الذين أدوا دوراً في الصراع بين الباشية والحسينية، والتهجريس عامّة، خلال الحرب الأهلية، توقف الصغير بن يوسف عند خبر أحد الأعيان والوجهاء من مدينة تونس؛ هو الحاج محمد الرصاع، وقد صنّفه من بين أكابر المهجرسين<sup>(61)</sup>.

إنّ الأمثلة عديدة في **المشعر الملكي**، وفي ما حوى من تراجم ومعلومات حول بعض الفاعلين الاجتماعيين الذين كانت لهم صلة من قريب، أو من بعيد، بأحداث الفترة التاريخية التي أرخ لها الصغير بن يوسف، وقد بدت لنا متداخلة مع الأحداث والوقائع والأخبار. ومع ذلك، فإن الصغير بن يوسف حاول أن يحدو حدو من سبقه من المترجمين والإخباريين، ولا سيما حسين خوجة، من خلال "ذكر بعض خواص خواصه (الباي حسين) وأكابر كتابه ووزاريه [كذا] ومديري مملكته والقائمين بتوليته وخدمته"<sup>(62)</sup>. وفي هذا الصدد، لم يغفل الصغير بن يوسف عن الترجمة لبعض العلماء والأولياء الصالحين "ولرجال الشرع" - على حدّ عبارة الباحث محمد الهادي الشريف<sup>(63)</sup> - الذين قرّبهم حسين بن علي. فذكر أخبار الحاج يوسف برتقيز (ت. 1738) إمام الباي وجليسه، وترجم له، إضافة إلى محمد الصغير داود النابلي، والقاضي علي شعيب أصيل باجة. وهؤلاء من أبرز العلماء في دولة حسين بن علي<sup>(64)</sup>. وهكذا لم يكن الصغير بن يوسف، كما هي الحال بالنسبة إلى العياضي منحاذاً إلى طرف دون آخر. فقد اقتصر على الترجمة لجماعة من العلماء عددهم ثلاثة وعشرون، وهم من الموالين للنظام الباشي، ولم يذكر من العلماء الحسينيين أحدًا<sup>(65)</sup>.

وفي الصدد نفسه، لم يقف الصغير بن يوسف عند أعوان الباي حسين وخدامه فحسب، وإنما خصّ "بعض خواص الباشا (علي باشا) ومشاهير وزرائه وكبراء خدامه"<sup>(66)</sup> بتراجم منفردة. ونذكر من بين هؤلاء مصطفى بن متيشة وصرهه إبراهيم رايس<sup>(67)</sup>. كما نجد في **المشعر الملكي** ترجمة للباش كاتب عبد اللطيف السهيلي الوسلاطي: "وكان رجلاً متكبّراً جامعاً للمال"<sup>(68)</sup>، وأورد الصغير بن يوسف أن له قصة مع أعيان باجة، عند ذكر ما آل إليه السهيلي ومحنته؛ إذ قتل وتركت جثته ننتة<sup>(69)</sup>. ومن كتبه الباشا ذكر

60 لقد سبق أن تناولنا هذه المسألة في أطروحتنا، انظر: جمال بن طاهر، "الفساد وردعه: الردع المالي وأشكال المقاومة والصراع بالبلاد التونسية 1705-1840"، كلية الآداب منوبة، 1995، ص 119-120.

61 الصغير بن يوسف، ج 1، ص 230.

62 المرجع نفسه، ص 293.

63 Mohamed-Hédi Cherif, "Hommes de religion et pouvoir dans la Tunisie de l'époque moderne," *Annales*, E,S,C, vol., 35, no. 3-4, 1980, pp. 580-597.

64 حول هؤلاء العلماء وعلاقتهم بحسين بن علي، انظر على السبيل الذكر: Ibid.

65 الهيلة، ص 112.

66 المرجع نفسه.

67 الصغير بن يوسف، ج 3، ص 211-214.

68 المرجع نفسه.

69 المرجع نفسه، ص 206-208.

أيضاً عبد الرحمن البقلوطي وعلي بن عبد اللطيف<sup>(70)</sup>. ومن خدام الباشا ذكر الأغا عصمان، أغا وجق صبايحية باجة<sup>(71)</sup>. وعلى هذا النحو، يمكن القول إن الصغير بن يوسف وازن في التراجم بين الاهتمام برجال دولة حسين بن علي ورجال دولة علي باشا، مُركِّزاً على المسارات الفردية التي جمع بينها خدمة الدولة من جهة، والنهاية التراجمية من جهة أخرى، متجاوزاً في بعض التراجم ما جاء في الحديث النبوي، عاملاً به في كتب التراجم القديمة المغربية والمشرقية: "اذكروا محاسن موتاكم"<sup>(72)</sup>. فهو لم يتورع، أحياناً، عن ذكر مساوئ المترجم له وذمّه، من ذلك مثلاً ما قاله في ترجمة قاسم بن سلطانة وميوله الجنسية: "واستفرد بمملكة السلطان ولا بقي له شريك في ما هو فيه، وكانوا يتهمونه بالأولاد غفر الله لنا وله أمين"<sup>(73)</sup>. ويحيلنا هذا الخروج عن المؤلف في التراجم، إلى الجدل العلمي، بل الخصومة بين شمس الدين السخاوي وجلال الدين السيوطي، ومن بين أسبابها عدم احترام السخاوي في تراجمه أعراض الناس. فقد حاد عن المنهجية المتبعة وشروط الترجمة المتفق في شأنها من قبل العلماء والمهتمين بالتراجم والحديث؛ بأن "أكب على التاريخ فأفنى فيه عمره، وأغرق فيه عمله وسلق فيه أعراض الناس، وملاه بمساوئ الخلق، وكل ما رموا به إن صدقاً وإن كذباً. وزعم في ذلك بواجب، وهو الجرح والتعديل، وهذا جهل مبين وضلال وافتراء على الله. بل قام بمحرم كبير، وباء بوزر كثير"<sup>(74)</sup>. وغني عن البيان ما كان من الانتقاد والتجريح بين العلماء قديماً، وما وصل إليه من تراشق في زمن السخاوي؛ فلا يمكن مقارنته - بدهاءة - بما وُجد في تونس في القرن الثامن عشر.

وإذا كان الصغير بن يوسف قد حاول أن يسير على منهج التراجم التي وضعها من سبقه؛ مثل حسين خوجة، وخاصة العياضي، فإنه لم يعتن مثلهما، في الترجمات التي حواها كتابه، بجانب البديع وسائر فنون النثر، خدمة منهما لغاية الإطراء والمدح للشخصيات المترجمة، بقدر اعتناؤه بالمعلومات التاريخية والأحداث والتفاصيل الشخصية. ومع ذلك، لم يقطع الصغير بن يوسف تماماً مع بعض الأجناس الأدبية الكلاسيكية، إذ نثر في **المشرع الملكي** على جنس المقامة التي تذكّرنا، من حيث أسلوبها ومنهج كتابتها، بمقامات الهمذاني، وبمقامات الأدباء المعاصرين له، من أمثال حمودة بن عبد العزيز، أو مقامات الشاعر محمد الورغي، وهو أمرٌ مؤكّد لثقافته وسعة اطلاعه على مصنفات الأدب والتاريخ<sup>(75)</sup>، بل نجده أحياناً "منشداً إلى الأعراف الأسلوبية السائدة في عصره وفي مقدمتها الولع بالمحسنات اللفظية والمعنوية بتوقيع الجملة جناساً وسجعاً، شعفاً قد يفضي إلى التكلف حيناً والتلبس حيناً آخر"<sup>(76)</sup>.

هذه، إذًا، بعض الأمثلة المتعلقة بالتراجم التي أوردها الصغير بن يوسف في **المشرع الملكي**، والتي أتت متممة لبعض التراجم التي وضعها العياضي في **مفاتيح النصر**، وحسين خوجة في **الذيل**؛ كما هي الحال بالنسبة إلى العلماء ورجال الشرع الذين قرّبهم حسين بن علي وبقوا على قيد الحياة من بعده، فتوسّع في تراجمهم؛ من أمثال يوسف برتقيز، والقاضي علي شعيب<sup>(77)</sup>. فقد أحاط بأخباره، وخاصة منها فراره من علي باشا، إضافة إلى لجوئه إلى قبيلة نهد التي وفرّ له شيخها الحماية<sup>(78)</sup>. لكن بقية التراجم، بما

70 المرجع نفسه، ص 238-239.

71 المرجع نفسه، ص 244.

72 حديث رواه أبو داود والترمذي واعتبره العديد من العلماء ضعيفاً.

73 الصغير بن يوسف، ج 2، ص 55.

74 السيوطي، ص 152. كما كتب السيوطي رسالة خاصة ردّ فيها على السخاوي، انظر: جلال الدين السيوطي، "مقامة الكاوي في الردّ على السخاوي"، في: شرح مقامات جلال الدين السيوطي، تحقيق سمير محمود الدروي، ج 2 (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1989)، ص 933-957.

75 Moncef Taieb, *Pouvoir et représentations: Réflexion sur les fondements culturels du pouvoir politique dans la Tunisie moderne* (Tunis: Faculté des lettres, des arts et des humanités de la Manouba, 2011), pp. 65-75.

76 بن يوسف، ص 127.

77 بشأن ترجمة يوسف برتقيز، انظر: حسين خوجة، ص 257-259؛ وبشأن ترجمة علي شعيب، انظر: المرجع نفسه، ص 259-260.

78 الصغير بن يوسف، ج 2، ص 21-33.

احتوت عليه من معلومات دقيقة وروايات وأخبار وقصص، فضلاً عن ذكر الصغير بن يوسف لبعض الصفات الخلقية والأخلاقية للفاعلين، تكشف عن ولعه بكتابة التاريخ وتحريه في نقل الخبر من جهة، والبحث عن العبر، وخاصة الاعتبار مما يعرف في التراث السياسي الإسلامي بـ "المحن"، أو "تقلب الأحوال"، وخاصة منها ما يصيب الفرد من بلاء من السلطان. ومن أمثلة ذلك الانتقال من حالة الغنى والثروة والجاه إلى الفقر والإفلاس والمطاردة والموت الشنيع والتشرد؛ بسبب بطش علي باشا الذي امتحن الكثير من الخاصة والعامة. ولئن فسر الصغير بن يوسف هذه المسارات الفردية ونهاياتها التراجمية، وأدرجها في إطار عامّ متمثل في الصراع على السلطة داخل العائلة الحسينية، فإنه أرجعها أحياناً إلى غضب الأولياء الصالحين، أو إلى العقاب الرباني، أو إلى "النحس" الذي يلازم بعض السنوات، مثل سنة 1139هـ (1728م) لانتهائها برقم "9"<sup>(79)</sup>. ولا شك في أنّ عقلية التطير هذه تُعد من إفرازات الظرفية المضطربة بسبب الحرب الأهلية، وترتبط بتفشي مثل هذه المواقف داخل مجتمع محافظ لا يجد تفسيراً علمياً لما يعيشه من أحداث جسام.

ومهما يكن من أمر التداخل والاختراق بين التاريخ والتراجم في **المشعر الملكي**، وإن لم تسلم جميع التراجم والأخبار من نقص، فإن المعلومات الواردة فيه حول الفاعلين الاجتماعيين تبرز رغبة الصغير بن يوسف في مواصلة ما قام به من سبقه من الإخباريين بشأن تدوين الأخبار من جهة، وتقديم المعلومات الإضافية والجديدة حول الواقع المعيش، وحول الظرفية الاقتصادية، وحول المجتمع المحلي بياجة، وفق منهجية مبتكرة ومجددة أحياناً في كتابة التاريخ، من جهة أخرى.

## خاتمة

إنّ وجوب الاعتبار من الماضي بالنظر والتأمل في سيرة الفاعلين التي انبنت عليهما الكتابة التاريخية لدى الصغير بن يوسف، وغيره من الإخباريين التونسيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر، لا تنفي انتماءه إلى عصره بما حمله من هموم وطرحه من أمثلة، في تصور قد يكون يائساً أو حذرًا أحياناً، ولكنه متطلع إلى الحاضر والمستقبل. وعلى هذا النحو، مثل الصغير بن يوسف حلقة وصل بين مؤرخي القرن السابع عشر ومؤرخي القرن التاسع عشر في تونس، ولا سيما ابن أبي الضياف الذي ذكره في **الإتحاف**<sup>(80)</sup>. ومن ثمّ يمكن القول إن **المشعر الملكي** لم ينتشر ولم يُعرف عند العامة فحسب، وإنما اطلعت عليه، وعلى محتواه، الفئة العاملة، وأعيان الدولة خلال القرن التاسع عشر. فلئن رأى البعض، كما لمُحنا إلى ذلك، أن **المشعر الملكي** يمكن أن يُعدّ كتاباً صالحاً للقراءة في الأسمار والمجالس للتسلية والاعتبار - كما هي الحال بالنسبة إلى القصص الشعبية من أمثال ألف ليلة وليلة والجازية الهلالية - فإن ذلك لا ينقص في رأينا من ثقافة الصغير بن يوسف، وقدرته على كتابة التاريخ بثقافة المثقفين من الطبقة الوسطى في عصره، وهو ما نجد له شبيهاً لدى بعض الإخباريين

79 المرجع نفسه، ج 3، ص 19 ("ولما دخل عام تسعة وثلاثين ومائة وألف وأخبرك أن هذه التسعات لا بد وأن يقع فيها شيء من الآفات [...]"). وفي هذا الصدد يتنزل اهتمام الصغير بن يوسف بذكر أخبار الأولياء والصالحين، لا سيما منافيتهم وكراماتهم، ذكرًا يشي بإيمانه بدور هؤلاء ومكانتهم في المجتمع وفي الأحداث الجسام التي مرت بها الإيالة في الفترة الممتدة من عام 1705 إلى عام 1766. فمن الأخبار والكرامات ذكر على سبيل المثال أخبار الولي سيدي مصطفى البابلي، وسيدي عبد الله العلي، وسيدي علي عزوز، وسيدي عاشور العياط، وغيرهم كثير.

80 أحمد بن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، ج 2 (تونس: الدار العربية للكتاب، 2004)، ص 124، 145.

بمصر وبلاد الشام، كما ذكرنا، بل حتى لدى بعض الإخباريين في المغرب الأقصى في القرن الثامن عشر، ومن بينهم الضعيف الرباطي (1752-1818)<sup>(81)</sup>.

وإجمالاً، يمكن القول إن الصغير بن يوسف قد استحضر في كتابته للتاريخ الثقافة العربية الكلاسيكية، ولكن بمنطق "المثقف" الذي ينهل من ثقافة مدونة وأخرى شفاهية، ويحركه معيار الانخراط في المناخ الاجتماعي والثقافي التونسي خلال القرن الثامن عشر، من خلال حفظ الذاكرة زمن بناء الدولة الحديثة، ولا سيما أنه عاصر حدثين وعهدين مفصليين هما الحرب الباشية الحسينية، ثم عودة الأمن والاستقرار بعد رجوع أبناء حسين بن علي إلى السلطة عام 1756، وهو ما وصفه الباحث عبد الحميد هنية بـ "الواقعية في كتابة التاريخ"<sup>(82)</sup>، وقد ظهرت مع ابن أبي دينار، ودُعمت مع الصغير بن يوسف بأسلوبه ومنهجه المتميزين<sup>(83)</sup>.



81 تبهني مشكوراً الصديق الأستاذ عبد الرحمان المودن إلى أوجه الشبه بين الصغير بن يوسف وبين أسلوب الكتابة التاريخية ومنهجها عند الضعيف الرباطي، الذي عاش في ظرفية تاريخية متأزمة، والذي تهجم بدوره على الكثير من معاصريه، وتسربت إلى لغته اللغة العامية والسوسية، فمزج بين الفصحى والعامية، وعبر بدقة عن أزمة الثلاثين سنة في تاريخ الدولة العلوية (1727-1757)، وغيرها من الأحداث والأوضاع بدقة متناهية، انظر: محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف، تحقيق وتعليق أحمد العمري (الرباط: دار المأثورات، 1986).

82 هنية، ص 5-55.

83 المرجع نفسه، ص 63.

## References

## المراجع

### العربية

- ابن أبي الضياف، أحمد. إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان. ج 2. تونس: الدار العربية للكتاب، 2004.
- أحمد، ليلي عبد اللطيف. دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني. القاهرة: مكتبة الخانجي بمصر، 1980.
- بن طاهر، جمال. "الفساد وردعه: الردع المالي وأشكال المقاومة والصراع بالبلاد التونسية 1705-1840". كلية الآداب منوبة، 1995.
- بن يوسف، الصغير. المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي. تقديم وتحقيق أحمد الطويلي. تونس: المطبعة العصرية، 1998-2009.
- \_\_\_\_\_ . المذيل على الرسالتين المسماة إحداهما "بأنباء نجباء الأبناء" والثانية المسماة بـ "سلوان المطاع في عدوان الأتباع". مخطوط المكتبة الوطنية تونس. رقم 9984.
- \_\_\_\_\_ . التكميل المشفي للغليل على كتاب العبر لابن خلدون. مخطوط المكتبة الوطنية بتونس. رقم 5264.
- حنا، نللي. ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية (ق16-ق18). ترجمة رؤوف عباس. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2004.
- \_\_\_\_\_ . مصر العثمانية والتحويلات العالمية 1500-1800. ترجمة مجدي جرجس. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2016.
- خوجة، حسين. ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. تحقيق وتقديم الطاهر المعموري. تونس/ ليبيا: الدار العربية للكتاب، 1975
- دراسات في التراث المكتوب. تنسيق فتحي الجراي. تونس: المركز الوطني لفنون الخط، 2017.
- الدوري، عبد العزيز. بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1960.
- الرباطي، محمد الضعيف. تاريخ الضعيف. تحقيق وتعليق أحمد العماري. الرباط: دار المؤلفات، 1986.
- روزنتال، فرانتز. علم التاريخ عند المسلمين. ترجمة أحمد صالح العلي. بغداد: مكتبة المثنى، 1963.
- زيادة، خالد. الكاتب والسلطان: من الفقيه إلى المثقف. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2013.
- الزيراوي، توفيق. المشرع الملكي: القسم الثاني من دولة علي باشا. شهادة الكفاءة في البحث. إشراف أحمد عبد السلام. كلية الآداب بتونس، 1977.
- السخاوي، شمس الدين. الذيل على رفع الإصر أو بغية العلماء والرواة. تحقيق جودة هلال ومحمد محمود صبح وعلي البجاوي. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966.
- \_\_\_\_\_ . الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. بيروت: دار الكتاب العربي، 1979.
- \_\_\_\_\_ . الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. بيروت: دار الجيل، 1992.
- السنوسي، محمد. مسامرات الظريف بحسن التعريف. تحقيق وتعليق محمد الشاذلي النيفر. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994.



- . السيوطي، جلال الدين. نظم العقيان في أعيان الأعيان. تحقيق فيليب حتي. سوسة: دار المعارف للطباعة والنشر، 1999.
- . شرح مقامات جلال الدين السيوطي. تحقيق سمير محمود الدروبي. ج 2. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1989.
- . الصباغ، ليلى. من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول محمد الأمين المحبى المؤرخ وكتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. ط 10. دمشق: الشركة المتحدة للتوزيع، 1986.
- . عبد السلام، أحمد. المؤرخون التونسيون: في القرون 17 و18 و19. رسالة في تاريخ الثقافة. ترجمة أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي. تونس: بيت الحكمة قرطاج، 1993.
- . عجينة، محمد. المشرع الملكي: القسم الأول من دولة علي باشا. شهادة الكفاءة في البحث. إشراف أحمد عبد السلام. كلية الآداب بتونس، 1972.
- . العدواني، محمد بن محمد بن عمر. تاريخ العدواني. تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1996.
- . عز الدين، محمد كمال الدين. التاريخ والمنهج التاريخي لابن حجر العسقلاني. القاهرة: دار اقرأ، 1980.
- . العسقلاني، أحمد بن حجر. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. تحقيق محمد بن عبد المعيد خان. ط 2. حيدر آباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1972.
- . الغزي، نجم الدين. الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة. تحقيق جبرائيل جبور. ط 2. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1989.
- . الكراسات التونسية. العدد 155-156، 2005.
- . ليفي بروفنسال، مؤرخو الشرفاء. ترجمة عبد القادر الجلادي. الرباط: دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977.
- . مبيضين، مهند. أهل القلم ودورهم في الحياة الثقافية في مدينة دمشق خلال الفترة (1121-1172هـ/1708-1758م). ط 2. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2017.
- . المحبى، محمد أمين. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. بيروت: دار صادر، [د.ت.].
- . محمد خليل المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر. ط 3. بيروت: دار ابن حزم، 1988.
- . مسار مؤرخ وتجربة تاريخية: أعمال مهداة إلى محمد الهادي الشريف. تنسيق عبد الحميد هنية. تونس: نشر دراسات مغاربية/ مركز النشر الجامعي، 2008.
- . النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بتونس. العدد 4 (1976).
- . هنية، عبد الحميد. "التجديد في مجال علم التاريخ في البلاد التونسية بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر ميلادياً". أسطور للدراسات التاريخية. العدد 7 (كانون الثاني/يناير 2018).

## الأجنبية

- Bin Youssef, Mohammed Seghir. "Mechra El Melki, chronique tunisienne (1705-1771) pour servir à l'histoire des quatre premiers Beys de la famille Hussainite." Victor Serres & Mohammed Lasram (trans.). *Revue Tunisienne*. vol. 1. no. 8. 1900.
- Chater, Khalifa. "En marge d'une lecture du chroniqueur Seghir Ben Youssef: La situation économique et sociale de la régence de Tunis au XVIIIè siècle." *Revue d'Histoire Maghrébine*. no. 39-40 (1985).
- Cherif, Mohamed-Hédi. "Hommes de religion et pouvoir dans la Tunisie de l'époque moderne." *Annales, E,S,C*. vol. 35. no. 3-4 (1980).
- —————. *Pouvoir et société dans la Tunisie de H'usayn bin 'Ali (1705-1740)*. vol. 2. Tunis: Pub. Université de Tunis, 1984.
- *Chroniques Tunisiennes de Mohamed Segheir Ben Youssef*. 2<sup>ème</sup> ed. Tunis: édition Bouslama, 1978.
- Taieb, Moncef. *Pouvoir et représentations: Réflexion sur les fondements culturels du pouvoir politique dans la Tunisie moderne*. Tunis: Faculté des lettres, des arts et des humanités de la Manouba, 2011.